الأدب والسينما

للأستاذ دريني خشبة

استدرك أحد كرام القراء فنشر في الرسالة تعليقاً على مقالي من صحفنا الممتازة نفى فيه صلاحية السينما للأدب لانقطاع العلاقة بينهما في زعمه ، وربما حدا به إلى هذا الرأي ما يظنه من أن الأدب إنما ينبغي أن يكون أسلوباً وتعبيراً كلامياً قبل أن يكون موضوعاً ، وإن لم يصرح بهذا في الكلمة التي نشرتها الرسالة له . والعجيب أن يأخذ الكثيرون بوجهة النظر هذه في العلاقة بين الأدب والسينما ، ولست أدري ماذا تكون الرواية السينمائية إن لم تكن أدباً يختلف في أدائه من الأدب المسرحي كما يختلف في أدائه أيضاً من أدب القصة . ومعظم المتأدبين العرب ممن لا يعرفون الآداب الأجنبية ينظرون إلى الأدب في هذه الحدود الضيقة التي لا تخرج به عن المقالة أو القصيدة أو العظة القصيرة أو الرسالة أو المقامة أو ما شابه ذلك مما تحويه كتب الأدب العربي ، وقد مضت قرون طويلة قبل أن تدخل القصة في أدبنا ، وإن تكن قد دخلته هذا الدخول المقدس عن طريق القرآن الكريم والأحاديث القدسية وعن طريق رواية أخبار المتقدمين ، تلك الرواية التي هي إلى التاريخ أقرب منها إلى الأدب ؛ فلما دخلت القصة في الأدب العربي عن طريق الترجمة في العصر العباسي بكتاب كليلة ودمنة ، ثم بكتاب ألف ليلة فيما بعد ، لم تحفل بها تلك الطبقة المثقفة التي كانت مشغولة بالعلوم الدينية ورواية أشعار العرب عن كل شيء والتي كانت بعد كل شيء غير العلوم الدينية ورواية أشعار العرب وكل ما يصح أن تؤيد به الكتاب والسنة من فلسفة أو أثر لغوي ، عبثاً لا طائل وراءه ولا خير فيه ، ولذلك فشا كتاب ألف ليلة بين العامة الجاهلة وانصرفت عنه الخاصة المستنيرة ، كما حبس كليلة ودمنة على تأديب أبناء الملوك والخاصة من الوزراء ، فلم ينشر في دائرة واسعة من طبقة الأدباء التي كان يحتمل أن تقلد ما فيه أو تنشئ على غراره ، وتولى أدباء من المصريين والمغاربة تأليف قصص على نهج ما جاء في ألف ليلة ، فحشدوا لها أساطير الجن والسحر ، وداعبوا بها الغرائز الجنسية ، مما يفتتن به غير العامة ، ويأنف من قراءته الخاصة ، ثم ألفت الملاحم العربية والمصرية على نحو المبالغة والتهويل كان سبباً في استعلاء الخاصة عنها كذلك . وهكذا ظل أدب القصة غريباً على الأدب العربي حتى عصرنا الحديث الذي ترجمت فيه بعض الروائع من قصص العرب فأظهرتنا على الفرق الشاسع بين أدبنا والآداب الأوربية ... أدبنا القليل النور ... أدبنا المزق الذي لا تمسك أجزاءه وحدة ، والآداب الأوربية العميقة المتماسكة ، ثم كان أن أقبل بعض كتابنا على تأليف القصص فنجح منهم عدد غير قليل ، وإن كانت القصة الطويلة التي تضارع القصة الأوربية لم تدخل في أدبنا بعد ... على أن الرواية التمثيلية ظلت بمنأى عن الأدب العربي على الإطلاق ، إلا ما حاوله بعض أدبائنا المجتهدين إبان نهضتنا التمثيلية من تلك الدرامات الفجة المسجوعة السمجة التي كانت تؤديها بعض فرقنا الإقليمية . ثم حاول بعض أدبائنا الجدد أن يغذوا المسرح المحلي بقطع من إنتاجهم ، ولم يكادوا يفعلون حتى ثبط هممهم بخس مديري الفرق لجهودهم وعدم تشجيع الحكومة لهم ، ولأن الحركة المسرحية المنظمة التي من همها خدمة اجتماعنا وخدمة لغتنا وآدابنا لم تخلق بعد . فانصرف الأدباء عن التأليف المسرحي غير مأجورين ولا مشكورين ، بل انصرفوا والحسرة تملأ نفوسهم ، والغيظ يشق مرائرهم . وهذا كله هو الذي حفزنا إلى الدعوة للأدب المسرحي ، والإهابة بكل من يستطيع مؤازرتنا أن يعضدنا في هذه الدعوة ، وأن يضم جهوده إلى جهودنا ، عسى أن تستيقظ وازرة المعارف وأن تنتبه وزارة الشئون ، فتعلما أن النهضة المسرحية هي أساس كل نهضة اجتماعية ، وأنها تخدم لغتنا وأدبنا وثقافتنا بما لا يستطيع أن يخدمها به شيء آخر . ولما كانت السينما اليوم أكثر انتشاراً في مدننا من المسارح ، ولما كانت لهذا السبب أبعد خطراً في نفوس الجماهير منها وجب ألا تقل عنايتنا بها عن عنايتنا بالمسرح ، ووجب أن نلفت أنظار الأدباء إلى الإنتاج السينمائي بقدر ما نلفتهم إلى الإنتاج المسرحي ، لأن الغاية واحدة وإن اختلف الأداء ، ولأن الأديب وحده هو الذي يستطيع أن

يضطلع بتأليف القصة المحبوكة الشائقة التي هي المعين الأول للرواية السينمائية ، تلك القصة التي يتولى إعدادها (عمل السناريو منها) للسينما فنان آخر غير المؤلف ، بحيث يكيفها تكييفاً لا يخرج بها عن الأصل قط وإن رتبها الترتيب السينمائي الذي لا بد منه لكمال هذه الصنعة ، فالقصة السينمائية من الوجهة الموضوعية أدب محض ، ثم هي أدب محض من حيث أسلوبها كذلك ؛ وهي ، وهم يشترطون أن يكون واضع السناريو من القصة الأدبية أو الدرامة المسرحية للسينما أديباً واسع الاطلاع له إلمام تام بأساليب الكتابة وأساليب الحوار على السواء ، كما ينبغي أن يكون قديراً في دراسة الأشخاص متبحراً لذلك في علم النفس ، بحيث يستطيع أن يفهم روح المؤلف الذي تعتبر القصة قطعة من نفسه ومرآة لفنه . ولذلك ترى القصة التي تعد للسينما عملاً أدبياً صرفاً من كل وجوهه ، بل هو عمل أدبي يصدر أولاً عن روح المؤلف ، ثم يتعاون في إعداده واضع السناريو ثم المخرج ثم المصور ثم هذا الجيش العرمرم من العمال والمهندسين الذين يحسن ، بل يجب أن يكونوا ممن يتفهمون الأدب ويسيغونه لأنهم شركاء في إنضاج هذه الثمرة الأخيرة التي تعرض على الشاشة البيضاء ، فإما أن تنجح كعمل أدبي وإما أن يقضى عليها بالفشل الذريع

فالمباعدة إذن بين الأدب وبين السينما وهم لا أصل له . ثم هو وهم أقصى عن التأليف للسينما كبار كتابنا وأحسن قصاصينا ، وإلا فما ذا كتب للسينما طه حسين ومحمود تيمور ولاشين ومحمود كامل ويوسف جوهر وتوفيق الحكيم ، ومن إليهم من الأدباء الشباب والأدباء الكهول على السواء ؟ لقد انصرف هؤلاء عن التأليف للسينما ، فكانت النتيجة أن وكلت شركات الصور إلى مؤلفي الدرجة الثانية كتابة قصصهم ، وكانت النتيجة أيضاً تلك الأشرطة المخزية بموضوعاتها وإخراجها وتهريجها ... وغاب عن أئمة كتابنا أن أدب هذه الأشرطة هو الذي يمثل اليوم أدب القصة المصرية في الداخل والخارج أمام ملايين المتفرجين ، وهو تمثيل يضع أدب القصة المصرية السينمائية في الوحل ، وينشر ضدنا دعاوة سيئة بين شعوب شقيقة كانت تقدرنا أحسن التقدير فانتهت إلى الرثاء لنا إن لم تبكن السخرية بنا . ومما يدعو إلى الأسف أن يضطر الإنسان إلى تسجيل انصراف طبقة كبيرة من المصريين المثقفين المتازين عن شهود الروايات المصرية التي تعرض في دور السينما المختلفة . وذلك لما بلوه مراراً من انحطاط موضوعاتها وضعف تأليفها ، وبُعد الشقة بينها وبين الأفلام الأجنبية التي تغذو سوق السينما المصرية وتهب أموال المصريين نهباً تستحقه أحياناً ولا تستحق منه مليما أحياناً كثيرة . . . والجيد من تلك الأفلام يفضح صناعة السينما في مصر بقدر ما يفضح المؤلفين المصريين . وهذا الجيد كثير جداً مع الأسف ، وهو يعرض علينا ألواناً رائعة من الأدب الأمريكي والأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي والأدب الروسي ، ومن سائر الآداب العالمية التي اشتهرت بثروتها في القصص والدرامة بقدر ما اشتهر الأدب العربي في هذه الناحية ، ذلك الفقر الذي عللناه في صدر هذا المقال ، والذي لا يريد كبار أدبائنا إنقاذنا منه وستر فضيحتنا فيه ... ولست أدري لماذا لا يتصل كبار أدبائنا بالسينما والتأليف السينمائي ؟ ولست أدري كذلك لماذا لا يتصل مديرو الشركات السينمائية بهؤلاء الكتاب الكبار يغرونهم بالمال الوافر والثراء الجم والربح الكثير إذا هم كتبوا لهم قصصاً طويلة تمثل حياتنا وتصورنا التصوير الصادق الذي لا يعرف الشعبذة ولا يدنو من التهريج ولا يفضحنا بين الأمم . إن شركات كثيرة في مصر تستطيع أن تسيل لعاب أحسن كتابنا بخمسمائة أو بألف من الجنيهات ثمناً لقصة يكتبها في شهر أو شهرين أو في ثلاثة أشهر ... ومن قصصنا الجاهزة عدد كبير يصلح جداً للعرض السينمائي ، وهو غني بموضوعاته ، عظيم بأسلوبه ، ثم هو بمعالجته الرائعة يصور من الحياة المصرية ألواناً مختلفة صادقة بحيث يزري بمئات من الروايات الأجنبية السمجة التي تغير تقاليدنا ، وتفتك بأخلاقنا ، وتشيع في نفوس شبابنا الرخاوة والطراوة والاستخذاء . يجب أن يدرك كل أديب مصري وطأة استعباد الأفلام الأجنبية لنا ، ويجب أن يتعاون الأدباء مع الشركات في إنقاذنا من نير الأدباء الأجانب الذين يفرضون ثقافتهم وأفكارهم علينا ، بكل ما في هذه الثقافة وتلك الأفكار من مزايا وأضرار ، والذين ينسخون أدبنا القومي الناشيء بآدابهم الفتية الناضجة . . . إننا نحمي الصناعات المحلية

الناشئة بزيادة المكوس ، فلا أقل من أن نحمى إنتاجنا الأدبى بإغراء كبار الكتاب عندنا بالمساهمة فى التأليف السينمائى ، وإقناع الشركات المصرية بمضاعفة الأجور لهؤلاء الكتاب حتى يرفعوا مستوى القصة السينمائية ويجنبوها هذا الإسفاف الذى ينتهى إلى الرثاء والسخرية ، وانصراف الطبقة المستنيرة عن شهود الروايات المصرية . . . على أن داعى الوطن واللغة والأدب كان ينبغى أن يقنع هؤلاء الكتاب وتلك الشركات بأن يسووا المسئلة بينهم فيخدموا الوطن واللغة والأدب مخلصين ، كما كان ينبغى أن ينظر إلى القضية من زاويتها الاقتصادية أيضاً ، إذ أصبح من أشد الجهل أن تتعامى الدولة وتتعامى الأمة عن هذه الألوف الضخمة من الجنيهات التى تسلك سبيلها من جيوب المصريين إلى جيوب شركات السينما الأجنبية ، تلك الألوف من الجنيهات التى كان ينبغى أن يكون لأدبائنا وشركاتنا كفل كبير منها إن لم يكن ينبغى أن يكون لهم معظمها ... إن معظم دور السينما فى القاهرة والأسكندرية وفى كثير من مدن الأقاليم هى دور أجنبية ونحن نشهد تلك الجموع الزاخرة من علية المصريين التى تتردد على تلك الدور يومياً ، وبالرجوع إلى دفاتر ضريبة الملاهى نعلم أن متوسط دخل إحدى دور السينما بالقاهرة يرتفع مرات كثيرة إلى خمسمائة جنيه مصرى كل يوم أى إلى خمسة عشر ألفا من الجنيهات شهرياً ، وفى القاهرة أربع من دور السينما يقرب إيرادها اليومى من هذا المستوى ، فإلى جيوب من تذهب هذه المبالغ الضخمة ؟ إنها تذهب إلى جيوب الأجانب ، وقل أن ينتفع المصريون منها إلا بأجور الخدم ! فأى هوان ينزل بالقومية المصرية والكرامة الوطنية بعد هذا الهوان ؟ هذا فى الوقت الذى يتضور فيه كثير من أحسن أدبائنا جوعاً ... وفى الوقت الذى يهدد فيه كبار الممثلين بهجر المسارح ... من أجل أزمتهم المالية ... ونحن لا ننكر أننا المسئولون قبل غيرنا عن هذه الكارثة ، والمسئولية موزعة على الدولة والأدباء والشركات ... فالدولة مقصرة لأنها تهمل المسرح المصرى على النحو الذى بيناه فى مقالاتنا الكثيرة السابقة ، والأدباء مقصرون لأنهم لا يساهمون فى التأليف القصصى والتأليف المسرحى ، وهما دعامتا الإنتاج السينمائى ، والأدباء الكبار يتركون للكتاب الصغار الذين لا يعرفون من فن القصة ولا فن الدراما شيئاً مهمة إمداد السينما المصرية الناشئة بقصصهم المريضة الهزيلة ، والشركات السينمائية مقصرة لأنها كانت تستطيع أن تغازل أدباءنا الكبار بشطر من أرباحها الوفيرة فينتجوا لها القصص الشائقة التى تضاعف مكاسبهم وترتفع بمستوى الشريط المصرى الذى أصبح الشرق العربى كله يعتمد عليه فى تغذية جماهيره بهذا اللون الحبيب من ألوان المتعة الذهنية

وأخشى ما أخشاه هو أن يكون أدباؤنا الكبار أيضاً ينظرون إلى السينما كشىء لا تصله بأدبهم الرفيع صلة ... تلك النظرة الفجة التى من أجلها كتبنا هذا المقال ... وأخشى ما أخشاه هو أن يكون الحال كذلك ، لأنهم جميعاً ، إذا استثنينا الدكتور هيكل ، لم يساهموا قط فى نهضة السينما المصرية مع أن معظم الذين جربوا كتابة القصة من هؤلاء الكتاب قادرون على تغذية السينما بالروائع التى ترتفع كثيراً إلى أفق الرواية السينمائية الأجنبية ، بل إن كثيراً من قصصهم التى انتهوا منها وقدموها للسوق الأدبية صالح للسينما المصرية ، وهو إن قدم للسينما يرتفع بها ويستر هذا الخزى المؤلم الذى يشيع فى الأشرطة المصرية بلا استثناء ... وإنه لمن المضحك بل إنه لمن البلَه ألا تخرج شركاتنا المصرية قصة لأحد من كبار أدبائنا أمثال المازنى وطه حسين ومحمود تيمور ومحمود كامل ولاشين وجوهر ومن إليهم ، فى حين أنها تنفق جهودها الكبيرة على هذه القصص الخائبة والروايات المخزية التعسة التى تؤذى الأبصار وتصدع الرؤوس وتحط من سمعة الأدب المصرى فى كل مكان تعرض فيه على أقل الناس بصراً بالنقد الأدبى ومعرفة بفن القصة أو الدراما ... لقد آن أن ننظر إلى هذه القضية من ناحية الكرامة القومية أولاً ، ومن ناحيتها الاقتصادية ثانياً ... وقبل هذا وذاك ، ينبغى أن ننظر إليها من حيث علاقتها الوثيقة بالأدب وبالنهضة التمثيلية ... فالأشرطة السينمائية أدب صرف ، وهى المرآة الجديدة التى نطلع فيها على نقائصنا ومزايانا ، كما تطلع فيها جميع الأمم على تلك النقائص وهذه المزايا ... ثم هى تصح أن تكون كتباً مصورة ناطقة حية يرانا فيها أحفادنا بعد مئات السنين ، فإما أن يقدروا جهودنا إذا رأوا شيئاً حسناً وإما